قصص الرحالة

كَثِيرٌ مِنْ أَجْزَاءِ المَعْمُورَةِ الَّتِى نَعْرِفُهَا الآنَ ، ظَلَّ مَجْهُولاً لَنَا عِدَّةَ قُرُونٍ لاَنَدْرِى عَنْهُ شَيْئًا ، إِمَّا لِصُعُوبَةِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، أَوْ بِسَبَبِ وُقُوعِهِ فِى جَانِبٍ آخَرَ مِنَ الْعَالَمِ . وَلٰكِنَّ حُبَّ الْمُخَاطَرَاتِ ، وَالْكَشْفِ دَفَعَ أُنَاسًا جَرِيئِينَ إِلَى الْقِيَامِ بِعِدَّةِ رِحْلاَتٍ ، الْغَرَضُ مِنْهَا كَشْفُ كُلِّ مَا كَانَ مَجْهُولاً مِنْ بِقَاعِ الْعَالَمِ .

ماركو بولو

وَسَنَقُصُّ عَلَيْكُمْ هُنَا قِصَصَ بَعْضِ الرَّحَّالِينَ ، كَمَا رَأَوْهَا بِأَنْفُسِهِمْ ، كُلٌّ عِنْدَ رِحْلَاتِهِ الَّتِى قَامَ بِهَا ، وَسَيَتَبَيَّنُ لَكُمْ مِنْ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ مَبْلَغُ الْجُهُودِ الَّتِى بَذَلَهَا هٰؤُلاَءِ النَّاسُ فِى سَبِيلِ ذٰلِكَ الْكَشْفِ ، وَمَا تَحَمَّلُوهُ فِى أَسْفَارِهِمْ مِنَ الْمَخَاطِرِ وَالْأَهْوَالِ ، لِتَحْقِيقِ ذٰلِكَ الْغَرَضِ النَّبِيلِ .

وَسَيَتَحَدَّثُ إِلَيْكُمُ الآنَ « مَارْكُو بُولُو » « Marco Polo » وَهُوَ مِنْ أَشْهَرِ هٰؤُلاَءِ الرَّحَّالَةِ ، عَنْ أَسْفَارِهِ الَّتِى قَامَ بِهَا مُنْذُ ٧٠٠ سَنَةٍ تَقْرِيبًا .

« أَسْعِدْتُمْ صَبَاحًا يَا أَبْنَائِى ! أَنَا « مَارْكُو بُولُو » وَقَدْ وُلِدْتُ بِمَدِينَةِ « الْبُنْدُقِيَّةِ » (بِإِيطَالْيَا) . وَكَانَ وَالِدِى تَاجِرًا . وَلَمَّا كُنْتُ مِنْ صِغَرِى مُغْرَمًا بِالْأَسْفَارِ فَقَدْ خَرَجْتُ مَعَ وَالِدِى وَعَمِّى فِى رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْبُنْدُقِيَّةِ بَرًّا إِلَى الصِّينِ . وَاسْتَغْرَقَتْ رِحْلَتُنَا هٰذِهِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ عَامًا . مِنْ يَوْمِ أَنْ غَادَرْنَا الْبُنْدُقِيَّةَ إِلَى يَوْمِ أَنْ عُدْنَا إِلَيْهَا .

وَكَانَ مِنْ أَثَرِ ذٰلِكَ الْغِيَابِ الطَّوِيلِ ، أَنِ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُنَا عَنْ أَهْلِنَا ، فَظَنُّوا أَنَّنَا هَلَكْنَا . وَلَمَّا عُدْنَا إِلَى الْبُنْدُقِيَّةِ لَمْ يَعْرِفْنَا أَحَدٌ مِنْهُمْ ، لِأَنَّنَا تَغَيَّرْنَا كَثِيرًا ، وَكَانَتْ مَلاَبِسُنَا فِى حَالَةٍ سَيِّئَةٍ جِدًّا ، فَاعْتَقَدَ النَّاسُ أَنَّنَا لُصُوصٌ أَوْ شَحَّاذُونَ ، وَلَمْ يَرْضَ أَحَدٌ أَنْ يُؤْوِينَا عِنْدَهُ ، أَوْ يَتَّصِلَ بِنَا بِأَىِّ حَالٍ : وَالْوَاقِعُ أَنَّنَا كُنَّا أَغْنِيَاءَ جِدًّا ، وَإِنَّمَا قَصَدْنَا أَنْ يَكُونَ مَجِيئُنَا عَلَى هٰذِهِ الصُّورَةِ ، مُفَاجَأَةً سَعِيدَةً لِأَهْلِنَا وَأَصْدِقَائِنَا .

وَقَدْ دَعَوْنَاهُمْ لِوَلِيمَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَلَبِسْنَا نَحْنُ ثِيَابًا فَاخِرَةً ، وَبَعْدَ تَنَاوُلِ الْغِذَاءِ ، أَخْرَجْنَا الْخَدَمَ مِنَ الْغُرْفَةِ ، وَاسْتَحْضَرْنَا مَلاَبِسَنَا الْقَدِيمَةَ الْبَالِيَةَ ، الَّتِى دَخَلْنَا بِهَا الْمَدِينَةَ ، عِنْدَ عَوْدَتِنَا إِلَيْهَا ؛ وَبِسِكِّينٍ حَادٍّ قَطَعْنَا مَوَاضِعَ الْخِيَاطَةِ فِيهَا . فَسَقَطَتِ الْجَوَاهِرُ وَالْأَحْجَارُ الْكَرِيمَةُ الَّتِى كُنَّا قَدْ خَبَّأْنَاهَا بِهَا ؛ وَقَصَصْنَا

عَلَيْهِمْ حَدِيثَ رِحْلَتِنَا . وَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ أَدْنَى شَكٍّ فِي شَخْصِيَّاتِنَا .

وَلَابُدَّ أَنَّكُمْ يَا أَبْنَائِي ، تُقَدِّرُونَ أَنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيَّ أَنْ أَسْرُدَ عَلَيْكُمْ كُلَّ مَالَاقَيْتُ فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الرِّحْلَةِ . عَلَى أَنِّي أَوَدُّ أَنْ أُعْطِيَكُمْ فِكْرَةً عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي سَلَكْنَاهَا ، وَالْأَمَاكِنِ الَّتِي زُرْنَاهَا .

أَبْحَرْنَا مِنَ الْبُنْدُقِيَّةِ إِلَى الشَّامِ ، وَمِنْ هُنَاكَ وَاصَلْنَا السَّيْرَ بِطَرِيقِ الْقَوَافِلِ إِلَى مَدِينَةِ بَغْدَادَ (بِالْعِرَاقِ) ، وَمِنْهَا رَكِبْنَا قَارِبًا إِلَى مِينَاءِ هُرْمُزَ عَلَى الْخَلِيجِ الْفَارِسِيِّ . وَهُرْمُزُ هٰذِهِ مَدِينَةٌ مُمِلَّةٌ غَيْرُ مُشَوِّقَةٍ وَحَرَارَةُ الشَّمْسِ فِيهَا شَدِيدَةٌ جِدًّا . وَلٰكِنَّ تِجَارَتَهَا وَاسِعَةٌ عَظِيمَةٌ ، لِأَنَّ التُّجَّارَ يَفِدُونَ إِلَيْهَا مِنَ الْهِنْدِ عَلَى مَرَاكِبَ مُحَمَّلَةٍ بِالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ وَالثِّيَابِ الْحَرِيرِيَّةِ وَالذَّهَبِ وَسِنِّ الْفِيلِ وَالْبَهَارِ وَبَضَائِعَ أُخْرَى كَثِيرَةٍ . وَيَبِيعُونَهَا لِتُجَّارِ هُرْمُزَ وَهٰؤُلَاءِ بِدَوْرِهِمْ يَبِيعُونَهَا لِتُجَّارِ الْعَالَمِ .

وَكَانَ فِي نِيَّتِنَا أَنْ نُسَافِرَ مِنْ هُرْمُزَ إِلَى الصِّينِ بِطَرِيقِ الْبَحْرِ ، وَلٰكِنَّ السُّفُنَ الَّتِي وَجَدْنَاهَا كَانَتْ رَدِيئَةَ الصُّنْعِ جِدًّا ؛ وَلَا شَكَّ أَنَّهَا كَانَتْ أَرْدَأَ سُفُنِ الْعَالَمِ . فَالْمَسَامِيرُ لَمْ تَكُنْ تُسْتَعْمَلُ فِي بِنَائِهَا . لِأَنَّ الْخَشَبَ الَّذِي كَانَتْ تُصْنَعُ مِنْهُ تِلْكَ السُّفُنُ ، صُلْبٌ جِدًّا إِذَا دُقَّتْ فِيهِ الْمَسَامِيرُ ارْتَدَّتْ عَنْهُ ، أَوْ تَكَسَّرَتْ عَلَيْهِ . فَكَانَتْ أَجْزَاءُ السَّفِينَةِ تَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، بِوَسَاطَةِ قِطَعٍ مِنَ الْخَشَبِ نَفْسِهِ . ثُمَّ تُشَدُّ تِلْكَ الْأَجْزَاءُ بِحِبَالٍ مِنْ لِيفِ جَوْزِ الْهِنْدِ . وَلَمْ يَكُنْ يُسْتَعْمَلُ الْقَارُ (الزفت) لِتَغْطِيَةِ الْأَرْضِيَّةِ وَحِفْظِهَا مِنْ تَسَرُّبِ الْمَاءِ إِلَيْهَا ، بَلْ كَانَتْ تُغَطَّى بِالزَّيْتِ وَالْقُطْنِ . وَلَمْ يَكُنْ لِلسُّفُنِ خَطَاطِيفُ (هلب) . وَلِذٰلِكَ كَانَتْ عُرْضَةً لِأَنْ يَقْذِفَ بِهَا الرِّيحُ الشَّدِيدُ فَتَضِلَّ الطَّرِيقَ .

مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ فَضَّلْنَا الِانْضِمَامَ لِإِحْدَى الْقَوَافِلِ الْمُسَافِرَةِ عَلَى ظُهُورِ الْجِمَالِ ، وَاجْتَزْنَا بِلَادَ فَارِسَ (العجم) وَوَصَلْنَا إِلَى أَفْغَانِسْتَانَ . وَبَعْدَ أَنْ قَضَيْنَا بِهَا قَلِيلًا مِنَ الزَّمَنِ سَافَرْنَا مَعَ قَافِلَةٍ أُخْرَى إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ فَاجْتَزْنَا هَضَبَةَ « الْبَامِيرِ » حَيْثُ لَمْ نُصَادِفْ سُكَّانًا وَلَا طُيُورًا لِشِدَّةِ الْبَرْدِ . وَمَرَرْنَا بَعْدَ ذٰلِكَ بِعِدَّةِ مُدُنٍ كَبِيرَةٍ فِي أَوَاسِطِ آسِيَا ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى حُدُودِ صَحْرَاءِ « جُوبِي » وَهٰذِهِ الصَّحْرَاءُ فَسِيحَةٌ جِدًّا ، حَتَّى لَقَدْ يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ لِيَجْتَازَهَا مِنْ طَرَفٍ لِآخَرَ . وَكُلُّهَا تِلَالٌ وَأَوْدِيَةٌ مِنَ الرِّمَالِ . وَلَيْسَ بِهَا شَيْءٌ يُؤْكَلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ . كَمَا أَنَّهُ لَا يُوجَدُ بِهَا وُحُوشٌ وَلَا طُيُورٌ . وَالتُّجَّارُ الَّذِينَ يُضْطَرُّونَ لِاجْتِيَازِهَا يَحْمِلُونَ مَعَهُمْ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ غِذَاءٍ وَمَاءٍ . وَقَدْ يَنْفَدُ غِذَاؤُهُمْ فَيُضْطَرُّونَ إِلَى ذَبْحِ حَمِيرِهِمْ أَوْ جِمَالِهِمْ لِيَأْكُلُوا لُحُومَهَا أَمَّا الْمَاءُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْحُصُولِ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الصَّحْرَاءِ إِلَّا نَادِرًا . وَكَانَ مِنْ عَادَةِ الْمُسَافِرِينَ فِي تِلْكَ الصَّحْرَاءِ

أَنْ يَظَلُّوا دَوَامًا بِجَانِبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ، حتى لاَ يَضِلَّ أَحَدُهُمُ السَّبِيلَ ، أَوْ يَقَعَ فِي قَبْضَةِ شَيْطَانِ الصَّحْرَاءِ فَيَقْتُلَهُ ، كما كانُوا يَزْعُمُونَ . وَكانُوا كَذَلِكَ يُمَلِّقُونَ الأَجْرَاسَ فِي رِقَابِ دَوَابِّهِمْ حَتى إِذَا ضَلَّتْ ، سَهُلَ الاهْتِدَاءُ إِلَيْهَا .

وَكَانَ مِنْ عَادَةِ القَوَافِلِ أَيْضًا أَنْ تَضَعَ قَبْلَ النَّوْمِ عَلاَمَةً يَتَبَيَّنُ مِنْهَا الاتِّجَاهُ الَّذِي تَسِيرُ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَبَعْدَ سَفَرٍ دَامَ ثَلاَثَ سِنِينَ وَنِصْفَ سَنَةٍ ، وَصَلْنَا إِلَى مَصِيفِ إِمْبِرَاطُورِ الصِّينِ عَلَى الجِبَالِ غَرْبَ « بِيكِينَ » وَقَدْ زُرْنَاهُ . وَسُرَّ كَثِيرًا بِلِقَائِنَا . وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِهِ بِنَا وَحِفَاوَتِهِ بِمَقْدَمِنَا ، أَنْ حَجَزَنَا عِنْدَهُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً !! مِنْ دُونِ أَنْ يَسْمَحَ لَنَا بِالْعَوْدَةِ إِلَى بِلاَدِنَا . وَقَدْ قُمْتُ فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْفَتْرَةِ بِرِحْلاَتٍ كَثِيرَةٍ حَوْلَ ذَلِكَ المَكَانِ ، وَعَيَّنَنِي الإِمْبِرَاطُورُ حَاكِمًا عَلَى إِحْدَى المُدُنِ الصِّينِيَّةِ . وَقَضَيْتُ فِي ذَلِكَ المَنْصِبِ ثَلاَثَ سَنَوَاتٍ .

وَمِنَ الأُمُورِ الغَرِيبَةِ ، الَّتِي شَاهَدْنَاهَا ، طَرِيقَةُ إِرْسَالِ الرَّسَائِلِ . فَمِنْ « بِيكِينَ » كَانَتْ تَتَشَعَّبُ عِدَّةُ طُرُقٍ ، وَعَلَى طُولِ تِلْكَ الطُّرُقِ كَانَتْ تُوجَدُ مَحَطَّةٌ لِلْبَرِيدِ عِنْدَ كُلِّ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ مِيلاً . وَفِي كُلِّ مَحَطَّةٍ بِنَاءٌ لِلسُّعَاةِ . وَكَانَ فِي بَعْضِ تِلْكَ المَحَطَّاتِ ٤٠٠ حِصَانٍ مُعَدَّةٍ لِلْخِدْمَةِ .

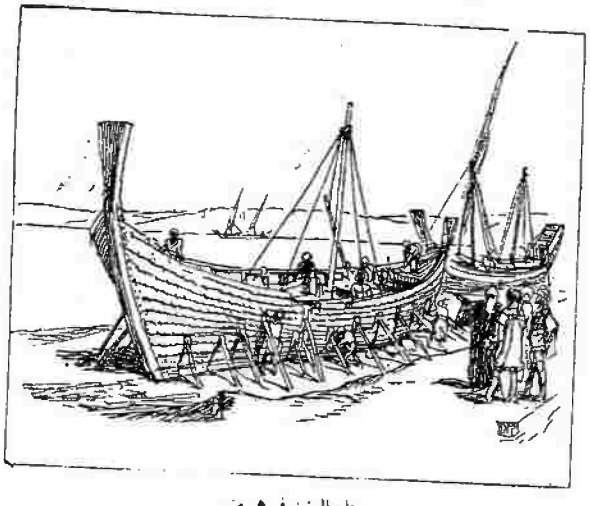

بناء السفن في هرمز

وَكَانَ لِمَدِينَةِ بِيكِينَ اثْنَا عَشَرَ بَابًا ، عَلَى كُلٍّ مِنْهَا أَلْفُ حَارِسٍ ، كَمَا أَنَّهُ كَانَ يُحِيطُ بِهَا أَرْبَعَةُ أَسْوَارٍ ، طُولُ كُلٍّ مِنْهَا ستَّةُ أَمْيَالٍ . وَشَاهَدْنَا فِي « هَانْكَاوَ » اثْنَى عَشَرَ أَلْفًا مِنَ القَنَاطِرِ المَصْنُوعَةِ مِنَ الأَحْجَارِ وَثَلاَثَةَ آلاَفِ حَمَّامٍ ، بَعْضُهَا يَسَعُ مِائَةَ مُسْتَحَمٍّ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ .

عَلَى أَنَّنَا بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ هٰذَا . فَقَدْ كُنَّا عَلَى الدَّوَامِ مُشْتَاقِينَ لِلْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِنَا . وَبَعْدَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً سَنَحَتْ لَنَا الْفُرْصَةُ لِلْعَوْدَةِ . فَاسْتَغْرَقَتْ عَوْدَتُنَا ثَلاَثَ سِنِينَ . وَاتَّخَذْنَا طَرِيقَنَا فِي الْبَحْرِ . فَاجْتَزْنَا مَضِيقَ « مَلَقَا » . وَشَاهَدْنَا السَّاحِلَ الْجَنُوبِيَّ لِلْهِنْدِ وَجَزِيرَةَ « سَيْلاَنَ » وَوَصَلْنَا إِلَى « هُرْمُزَ » مَرَّةً أُخْرَى . وَمِنْهَا سَافَرْنَا بَرًّا إِلَى الْبَحْرِ الأَسْوَدِ ، حَيْثُ وَجَدْنَا سَفِينَةً أَقَلَّتْنَا إِلَى « الْبُنْدُقِيَّةِ » وَطَنِنَا الْعَزِيزِ .

وَكَانَ مِنْ أَمْرِنَا أَنْ نَسِينَا النَّاسُ . وَلٰكِنَّ الآنَ كُلَّ النَّاسِ هُنَا قَدْ عَرَفُونَا ، لأَنَّنَا كُنَّا أَوَّلَ مَنْ وَصَلَ إِلَى الصِّينِ مِنَ الأُورُبِّيِّينَ . »